

الأديب و المّفكّر الرّاجل رمضان عبّد الرّحمن لاوند سيّد المنابر

مشروع توزيع في دولة واق الواق

قال لي صاحبي :

اسم واق الواق غريب ما في ذلك ريب . ولكنه حقيقة قائمة في خيال بعض الناس . لقد سمعت بهذا الإسم لأول مرة في حي من أحياء المنطقة الغربية من بيروت . وما يدريني لعل أحداً في غير هذه المنطقة قد سمع بهذا الإسم من قبل أو من بعد .

المهم أن واق الواق اسم لعالم خيالي ، مكانه في مكان خيالي ، وعلاقة الذين تخيلوه به نابعة من إحساسهم القوي بما يرمز إليه من البعد والاستحالة والغرابة . وإذا فالذين يستخدمون هذا الإسم يقصدون إلى إن يعبروا به عن غرض بعيد جداً قد يتصل بالعدم أو بما هو قريب منه .

ويتابع صاحبي فيقول : ومع ذلك أؤكد لك أنني وجدت نفسي يوماً في عالم واق الواق . حيث المدن ذات العمارة الكبيرة .. والناس الذين يضطربون فيها غدواً ورواحاً ... وحيث القرى التي تتكئ فوق ريف مخضوض جميل .. يغادرها الفلاحون مع فجر كل يوم ويعودون إليها عند غروب الشمس وقد أنهكهم العمل الشاق في الحفاظ على الحضرة ولياقة الأرض في تجديد العطاء عند كل موسم . وقد عايشت الناس في هذا العالم وتعاملت معهم ، سمعوا مني واستمعت إليهم . ولو شئت أن أتحدث إليك عن كل ما رأيت وسمعت وأحسست به لاحتجت إلى صفحات كثيرة قد لا يتسع لها مجلد كبير .. ولما كنت حريصاً على أن أشركك في معرفة بعض ما رأيت وسمعت لأريح نفسي من بعض ما تنوء به من ثقل المعلومات التي جمعتها في عالم واق الواق ، فقد اخترت لك واقعة واحدة من عشرات الواقعات التي عايشتها أو شاركت في صنعها .

وعندما بدت علي الدهشة واستغربت ما سمعته من صاحبي هذا ففتحت عيني واسعتين أنظر إليه ، أردف يقول : لا تدهش ولا تستغرب يا صاحبي . فأنا أعلم أن ما أسوقه إليك شيء غريب .. من عالم غريب .. وقد

لا يصدقني كثير من الناس ويظنون بي الظنون .. لكنني أؤكد لك أن كل ما سأقوله هو بعض الحقيقة لا كلها وقد يكون فيما أغفلت ذكره ما هو أدهى إلى الاستغراب والدهشة ..

وبعد فترة صمت قصيرة أردف صاحبي يقول : كان ذلك منذ عشرة أعوام على الأقل حين استيقظت صباح يوم من الأيام وبدأت أستعد للحاق بطائرة الساعة العاشرة قبل الظهر مستجيباً لدعوة رسمية وجهت إليّ باعتباري رئيساً للتحرير في صحيفة المساء اليومية ..

والواقع أنني في مثل هذه الرحلات لا أتزود بالشيء الكثير فهي لا تشغل من الزمان غير أيام قليلة لا تكاد تتجاوز عدد أصابع اليدين . وفي تمام العاشرة أخذت مكاني من الطائرة التي لم تلبث حتى تحركت في بطء ظاهر أول الأمر حتى إذا بلغت نقطة الانطلاق من مدرج المطار انطلقت تنهب الأرض ثم ارتفعت بنا باتجاه يكاد يكون عامودياً وبعد قليل عادت إلى استوائها الأفقي .

وقد أخبرنا ربان الطائرة منذ البداية أنه لن يتوقف بنا في أي مطار من مطارات الدول الواقعة في الطريق إلى العاصمة التي نقصد الارتحال إليها .

هذا وقد كان المفروض أن نبلغ العاصمة الآسيوية بعد أربع ساعات أو أكثر قليلاً .. والواقع أن الساعات الأربع قد انقضت في جو مريح ، فلم تضطرب بنا الطائرة ولم تهتز أبداً .. وكنت حينذاك أستعرض الخطة التفصيلية للاتصالات التي سأقوم بها خلال فترة الإقامة .. لكن الغريب أن الساعات الأربع قد انقضت دون أن نجد أنفسنا قريباً من العاصمة . كنت أنظر خلال النافذة فلا أجد تحتي غير جبال ووديان تغطيها غابات كثيفة أو تفتش الأمكنة المسطحة منها زراعات ذات ألوان متعددة . ثم أغمضت عيني اغماضة سريعة لم ألبث أن فتحتهما من بعد تحت تأثير هزة خفيفة فرأيت في الأفق البعيد غمامة سوداء لم تلبث حتى اتسعت وامتدت شيئاً فشيئاً حتى إذا اقتربنا منها سدت أمامنا الأفق كله وشاعت فيما حولنا عتمة شديدة بدأت الطائرة بها تهتز اهتزازاً يشدد تارة ويخف تارة أخرى . ثم طلب إلينا الربان بأن نشد الأحزمة دون أن يشعرنا باقترابنا من مطار العاصمة . وهنا بدأت الظنون تشيع في نفسي وفي نفوس الركاب القليلين من حولي وراح الجميع يتساءلون عن سر التأخر كما راحوا في الوقت نفسه يبحثون عن تفسير لهذه الظاهرة كل على طريقته الخاصة وفي ضوء مشاعره وأوهامه . ومضت ساعة أخرى دون أن يقول لنا الربان شيئاً يزيل مخاوفنا ويقضي على ظنوننا في الوقت الذي بقيت فيه السماء من حولنا مكفهرة بالغيوم السوداء التي تعصف بها الرياح دون أن تفرقها كما تجلد هذه الغيوم طائرنا بسيل من الأمطار لا ينقطع مدده ..

وتابع صاحبي يقول بعد أن أخذ أنفاساً قليلة : ولا أخفي عليك أن الخوف بدأ يتسرب إلى نفسي وإلى نفوس الرجال والنساء من حولي . وبدأت أشعر بضرورة الاستعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات في الوقت نفسه الذي رحلت أستعرض فيه حياتي كلها . فإذا بها شريط حافل بالوقائع والأحداث التي تنوعت بها تصرفاتي وتباينت فيها مواقف السابقة . وشدني إلى ماضي الأيام حنين قوي انشكفت لي فيه علاقتي الحميمة بكل من خلفت ورائي من الناس .. زوجتي وأولادي الصغار .. أصدقائي وزملائي في الصحيفة .. كل شيء في أيامي الماضية راح يعود إلي بوضوح تام .. وقد رافقته كل الانفعالات التي كنت أحس بها مع كل واقعة من الوقائع .. الفتاة التي أحببتها لأول مرة .. والرفيق الذي خاصمته لأول مرة .. وأمي التي رافقت طفولتي وشبابي .. ووالدي الذي ذهب عني منذ صباي الأول .. ثم الناس الذين أحبوني أو كرهوني .. والمواقف التي واجهتها بكل ما كان فيها من نجاح وفشل ... وسرور وحزن وتشاؤم وتفاؤل .. وشجاعة وخوف .. واطمئنان وقلق مدمر .. الماضي كله كان يزدحم في أعماقي وقد اختلطت فيه الوجوه تارة وبرزت فيه بوضوح تارة أخرى . وشعرت أن الحنين إلى هؤلاء جميعاً هو وحده الحقيقة الكبرى التي تملأ علي نفسي . لقد نسيت إساءة كل من أساء إلي .. وتمنيت لو أن الأيام عادت بي إلى الخلف حتى ولو كانت هذه العودة تعني العودة إلى فترات البؤس واليأس والألم والقلق في أيام صباي .. الدنيا كلها أصبحت حلوة ممتعة؟؟ والمقلق الوحيد الذي كان ينتابني هو الخوف من أن أفقد دنيا الماضي التي خلفتها ورائي ..

والواقع أنني لم أكن أسمع شيئاً مما يدور حولي إلا بين فترة وفترة . فقد كان لكل راكب من ركاب الطائرة ما يشغله عن غيره . كما كان كل منهم يواجه ما أواجهه من المشاهد وتعود إليه ذكريات ماضية . ومن حسن الحظ أن هستيريا الخوف لم تنتشر بين الركاب . لكن كلا منهم فيما بدا لي عبر نظرات سريعة أرسلتها إليهم قد انصرف إلى ذات نفسه وكأنه يحاسبها . كما رأيت بعض الشفاه تتحرك في صمت فأدركت أن أصحابها كل على طريقته وفي ضوء عقيدته ، يتلو آيات من كتابه المقدس أو يردد دعاء من أدعيته الدينية . فليس كالاقتراب من النهاية ما يعجز نفحات التقوى في القلوب وما يغذي العقيدة فيها . الناس أمام الموت ينتقلون إلى عالم غير عالمهم .. إنهم وهم يستقبلونه يكتشفون ضعفهم ويدركون شدة حاجتهم إلى الرعاية الإلهية، إلى هذه القوة الخفية التي تصنع الحياة والموت ، وتقدر الخير والشر ، وتمنح الأمل .. وتوفر الطمأنينة .. إن

الفطرة الطيبة الكريمة هي وحدها التي تستيقظ وتهيمن بكامل قوتها على الإنسان فإذا به نقي نقاء مياه المطر ..
شفاف شفاف ضياء الشمس .. وديع ودائمه الحمل .. مؤمن إيمان العجائز .

الصمت الرهيب يسيطر وينتشر .. لا أحد يتكلم لكأن كلاً منهم ينتظر كلمة القضاء التي لا ترد ..
ويستعد لاستقبال ما تجود به القوة الخفية في تبتل ظاهر .. وثقة كبيرة بالرحمة الإلهية ..

وقد خيل إلي أني رأيت عيوناً مغروقة بالدمع سالت منها قطرات منسحبة فوق وجوه جامدة قد انتشرت
فيها صفرة الخوف .

هذا والطائرة لا تزال تواجه عصف الرياح ولسعات الأمطار وتتجه نحو المجهول في وسط الغيوم السوداء التي بدا
لنا وكأنه لا نهاية لها .

ومضى من الوقت ما لا أستطيع تحديده . فقد شغلني همومي وذكراتي ومخاوفي عن استيعاب الزمن الذي
قضيناه وإن بدا لي وللجميع طويلاً جداً . والواقع أن الزمن في مثل هذا الموقف يطول يقصر تبعاً لصدور كل منا
على حدة وقدرته على مواجهة الخطر الذي كان يقترب في ظننا ويستعد للإطاحة بنا بين ثانية وثانية ..

وفجأة انقطع المطر وأخذت الغيوم السوداء تتخذ لونا رمادياً بصورة متدرجة فنظرت عبر نافذة الطائرة على
أمل العودة إلى دنيا الحياة والأحياء تماماً كما يفعل ركاب سفينة عصفت بها الرياح والأمواج وأحاط بها ضباب
كثيف ثم فجأة هدأت الرياح واختفت أمواج البحر الغاضب ورفع الضباب قبضته الثقيلة ليجد الجميع أنفسهم
قريبين من الشاطئ أو من جزيرة من الجزر .

و شد ما كان دهشتي حين رأيت نفسي فوق مروج خضراء وجبال مغطاة بالغابات الكثيفة تنتشر فيها قرى
كثيرة ومدينة عامرة . ثم هبطت بنا الطائرة هبوطاً يسيراً في غير صعوبة فوق أرض ممهدة كأن قوة سحرية قد
أعدتها لاستقبالنا . فإذا توقفت الطائرة بعد أن درجت بنا مسافة غير قصيرة تردد صوت الرنان يقول من خلال
مذياعه .

" الحمد لله على السلامة .. لقد ضلت طائرنا الطريق .. لكن الرعاية الإلهية رافقتنا وأخرجتنا من المحنة التي
تعرضنا لها .. نحن الآن في مطار لا نعرف له مكاناً في الخرائط التي بين أيدينا وفي بلد لم يسبق لنا أن زرناه من
قبل ذلك لأن كل أجهزة الطائرة التي تعين الاتجاه والسرعة وتحدد المكان والزمن قد تعطلت منذ أحاطت بنا

الغيوم السوداء .. ولذلك فنحن لا نعرف شيئاً عن ناس المطار الذي هبطنا إليه وعن الدولة التي يتبعها هذا المطار . لكن الرعاية الإلهية التي رفقت بنا خلال العاصفة ستترقب بنا حين نلتقي الرسميين في هذا المطار .. قلت لصاحبي وقد قاطعته : حسن جداً . لكن ألم يستطع ربان الطائرة أن يعين الاتجاه والمكان بصورة تقريبية ؟

قال صاحبي : لم يكن هذا ممكناً فقد فقد سيطرته على الطائرة كما أخبرنا بعد قليل خلال فترة العاصفة كلها .

قلت : حسن .. وماذا حدث بعد ؟

أردف صاحبي يقول : قد لا تصدقني إذا قلت لك أنني لا أعلم شيئاً عن مصير الركاب وملاحي الطائرة . لقد وجدتني وحيداً أمام أناس غرباء لهم وجوه كوجوهنا ... وألبسة كألبستنا .. وقامات كقاماتنا .. ومع ذلك فقد كان في الوجوه والألبسة والقامات شيء غريب لا أستطيع أن أتخققه . كان هذا الشيء الغريب كالهواء تحس بوجوده لكنك لا تراه .. تتعامل معه ولكنك لا تدرك كنهه .. وكان بين الناس الذين اقتربوا من الطائرة رجل طويل القامة عظيم الهامة رافع الرأس تقدم الجميع وقال :

من هو فؤاد البيروتي بينكم ؟

قلت : وقد أخذني العجب وملأني الدهشة : أنا فؤاد البيروتي .

قال : الصحفي ؟

قلت : نعم .

قال : تفضل وانزل فأنت مطلوب .

وشعرت آنذاك كأن ساقني تتخاذلان فلم أقف على السير إلا بعد فترة لا أذكر كم طالت . ثم حركت قدمي ثقيلتين يأكلني الخوف وتشيع ظنون غريبة في نفسي . ورحت أتساءل في صمت بينما يرافقني الرجل الطويل .. كيف عرفوا اسمي ؟. ومن عساهم يكونون ؟ وماذا يريدون مني ؟ لكنني لم أوفق إلى جواب يريحني ويعيد الطمأنينة الى نفسي . كما أنني لم أملك الجرأة على توجيه أي سؤال إلى رفيقي الغريب حذراً من أن يكون في الجواب ما يزيد خوفاً ويجعله رعباً يحطم أعصابي . لقد كنت في حاجة إلى بعض الأمل أتثور به الخلاص والراحة ..

وأخيراً بلغت أنا ورفيقي الغريب مكتباً علقت فوق بابه يافطة كتب عليها عبارة : " دائرة الأمن القومي " وفتح الباب فإذا بي أجدني في غرفة فسيحة يتصدرها مكتب عريض يجلس إليه رجل لم يكد نظري يقع عليه حتى عرفت فيه صديقاً من أعز أصدقائي في بيروت . قلت والمفاجأة تكاد تعقد لساني : أهذا أنت ؟ ماذا تفعل هنا يا سليم ؟ لقد تركتك أمس في بيروت نفسها .. قل لي : ما الذي جاء بك إلى هذه البلاد ؟

كنت أتحدث وأحس في الوقت نفسه وكأن صخرة ثقيلة قد أزيحت عن صدري . شعرت بالأمان وزالت مخاوفي . لكن من وجدت فيه صديقي سليماً أجبني يقول مستنكراً في استغراب ودهشة : بيروت ؟ تقول ؟ بيروت ؟ يبدو أنك قد ضيعت بعض وعيك ! أنت الآن في مدينة واق الواق ؟ وعندما هممت بالإجابة دفاعاً عن نفسي وتعبيراً عن دهشتي أردف يقول : أولاً يجب أن تستريح ؟ وأشار بيده إلى أحدهم وقد وقف في ركن من الغرفة .

ومرت فترة صمت حاولت فيها أن ألملم ما تفرق من أفكارني وأنظم ما اضطرب منها . نظرت عبر زجاج نافذة مطلة على ساحة المطار الواسعة التي تتاخم المبنى الرئيسي . قلت في نفسي : سبحان الله ما أشبه هذا الذي أراه بالذي كنت أشهده في مطار بيروت ..

الغرفة الواسعة التي يشغلها رجل الأمن تكاد تكون هي نفسها غرفة صديقي سليم رجل الأمن في بيروت .. وساحة المطار الكبرى لا تختلف عن ساحة المطار في بيروت .. حتى تلك المعالم الصغيرة والعلاقات الفارقة في هذه الساحة لا توحى بوجود أي اختلاف بينها وبين ما كنت أراه في مطار بيروت الدولي . أضف إلى ذلك أن وجوه الموظفين والناس الذين يخشون مجلس رجل الأمن الجالس أمامي وراء الطاولة ليست وجوها غريبة عني .. كل شيء فيها يذكرني بالوجوه البيروتية اللبنانية التي اعتدت رؤيتها والتعايش معها . لكنني لا أخفي عليك يا صاحبي أن شيئاً في أعماق نفسي يطل من يميني ويقول لي : ما هذا القناع الشفاف الذي يغطي كل الوجوه ويحيط بكل الأشياء حتى الجبال والوديان وحتى قرص الشمس الذي كان يميل إلى الغروب .. إنه قناع أحس احساساً قوياً بوجوده لكنه بالغ الشفافية .. كان في وسعي أن أراه بعيني لكنني لا أستطيع لمسه بيدي ..

وبقي السؤال المحير : كيف يتجاهل من أحسبه سليماً بيقين معرفته ببيروت ؟ هل يعقل أن تحتفي هذه المدينة . أو لنقل : هل يعقل أن ينساها أهلها خلال ساعات ؟ ولنفترض أن المجلس البلدي قرر الاستغناء عن اسم بيروت لسبب من الأسباب .. فكيف يتجاهل هذا الرجل الجالس أمامي وجود اسم " بيروت " ؟ قلت أخيراً في نفسي : لا بد أن أجد الجواب المطلوب وألثفت نحو من حسبته " سليماً " صديقي الذي أعرفه جيداً

لأعيد السؤال عليه .. لكنه يقطع علي الحديث ويقول : هذه مفاجأة لك يا فؤاد .. الأسرة في طريقها إليك .
وفجأة يفتح الباب وتطل امرأة شابة .. أنظر إليها فإذا بها أم عاطف زوجتي سلوى .. وفي لحظة خاطفة : قلت
في نفسي : سبحان الله .. يا إلهي ! ما هذا الذي أراه ؟ زوجتي أنا تستقبلي في مطار تابع لمدينة غير مدينة
بيروت إذا صح ما يقوله رجل الأمن الجالس أمامي ! كيف يحدث هذا ؟ ومن الذي أخبرها بحضوري ؟ بل ما
الذي جاء بها إلى مطار يزعم رجل الأمن أنه ليس مطار بيروت ؟

والواقع أن المرأة الشابة لم تكذ تراني حتى أقبلت عليّ مادة ذراعها إلي وضممتني إلى صدرها في حركة جياشة
بالعاطفة حافلة بالشوق مترعة بالحنان .. وقالت لي : الحمد لله على السلامة يا فؤاد .. ولم يسعني غير
الاستجابة لهذا الاستقبال الحار .. حتى إذا مضت دقيقة واحدة على الأكثر سمعت هتاف أولادي الثلاثة ..
عاطف في العاشرة من عمره .. رفيق في الثامنة ثم سعاد في السادسة .. وراحوا يرددون من حولي : بابا ... بابا
... فاستقبلتهم كما استقبلت والدتهم بالقبلات المشوقة وأظهرت فرحي بهم .. لكن شيئاً ما كان يقول لي : إن
في الأمر سرّاً .. القناع الشفاف الذي أحس بوجوده وأراه ثم لا أستطيع أن ألمسه كان يحيط بوجوه أفراد أسرتي
وأجسادهم . الحيرة تزداد في نفسي .. والسؤال الدائم الذي لا يجد جواباً لا يزال عند شفتي .. قلت : كل شيء
يدل إلى أن هؤلاء هم أعضاء أسرتي .. النظرات والوجوه بل حركات الشفاه والطريقة التي يستخدمها كل منهم
في كلامه ... زوجتي ذات الصوت المنغم الرقيق .. عاطف الذي بدأ صوته يتضخم قليلاً .. رفيق العابث بعينه
ويديه وكل جارحة من جوارحه ... ثم سعاد التي قفزت إلي ركبتى وركبت ساقى وهي تزودني بقبلاتها كما عهدتها
من قبل ... هل يمكن أن تكون كل هذه المشاهد ظنوناً وأوهاماً ؟ هل أصبحت بعد رحلتي على الطائرة غيري
أنا ؟ أم الناس والدنيا من حولي أصبحوا غيرهم هم ؟ لا يزال السؤال الكبير دون جواب .

وبعد أن تناول الجميع الشراب الذي قدم إليهم شعرت بالحاجة إلى مغادرة هذا المكان ... وقفت واستأذنت
بالخروج على أمل أن أكتشف الحقيقة في مكان آخر .. فنهض رجل الأمن ، الذي لا أزال أجد فيه صديقي
سليماً ومد يده بعد أن استدار حول طاولته ليودعني ويودع أفراد أسرتي . ودلفنا جميعاً خارج الغرفة لنجد أنفسنا
في ممر طويل هو نفسه الممر الذي عرفته عشرات المرات من قبل . حتى إذا بلغنا آخره وأطللنا على قاعة
الاستقبال الكبيرة التي يحيط بها سياج زجاجي تتخلله فتحات مستديرة على مسافات متساوية بينها ، دهشت

لكثرة المستقبلين وقلت في نفسي : صحيح أن القادمين معي على الطائرة قليلون .. لكن القاعة خالية منهم مما يجب أن يدهشني لأنني لم أقع على أي وجه من الوجوه التي عرفتھا في أثناء الرحلة الخطرة.

وهناك حيث يزدحم الناس وراء زجاج القاعة أشار أحدهم إلى الجهة التي كنت فيها .. نظرت من حولي فلم أجد أحداً غير قلة من الموظفين ذوي البزات الرسمية وغيري أنا وأفراد أسرتي .. ثم ارتفعت يد ثانية فثالثة فعشرات من الأيدي وترددت هتافات بحياقي أنا .. قلت لمن أحسبها زوجتي : لم كل هذه الإشارات ؟ ولماذا يهتف هؤلاء باسمي ؟ قالت وهي تضحك بفمها كله ... إنهم أنصارك في دائرتك الانتخابية .. لماذا لا ترد عليهم تحيتهم ؟ فرفعت يدي دون تفكير ولوحت لهم بهما جميعاً وأنا في حيرة وخوف وقلق .. والحقيقة أنني لم أجد وقتاً لإعادة تنظيم ما تبلبل من أفكارني .. أهذا حلم أم حقيقة ؟ هل أصبحت مرشحاً للانتخابات دون علم مني ؟ صحيح كنت أفكر بترشيح نفسي قبل أسبوعين وسجلت خطوات لتنفيذ الفكرة وإن كنت لم أنفذها بعد .. لكن ما الذي أخبر هؤلاء الناس بما قررت فعله .. وكيف تم حشدهم ؟ ومن أين جاءت وسائل المواصلات التي حملتهم ؟ وأخيراً من أخبر الجميع بأني قادم إليهم ؟

ويتابع صاحبي كلامه وأنا أتساءل في نفسي عن نصيب روايته من الصدق : وهكذا اضطررت يا صديقي إلى الاستمرار في تمثيل الدور الذي فرض علي لا سيما وأن كل شيء حولي يؤكد لي أنني في مطار بيروت الدولي وأنا عرفت بعض الوجوه التي كانت تحقد في شخصي من وراء زجاج القاعة .

قلت له : حسن يا فؤاد .. لكن ألم يقع نظرك على العلم اللبناني فوق مبنى المطار وأنت متوجه إلى مبناه الرئيسي ؟ قال : لم أر شيئاً ... وربما لم أنتبه إلى وجوده ..

قلت : تابع حديثك فهو يزداد تشويقاً وإثارة للدهشة .. وتابع صاحبي يقول : ثم لم تمض فترة قصيرة حتى وجدتني عند مدخل القاعة الخارجي وقد وقفت أمامه سيارة كبيرة سوداء يحيط بها الناس من كل صوب . وترددت هتافات أشد ، تخالطها ضحكات وترافقها الأيدي المصفقة أو الأذرعة الممدودة .. فإذا ألقى نظرة سريعة على ما حولي رأيت وجوها كثيرة لا أعرفها ... رجالاً ونساءً شاباناً وشابات ... وقد ظننت أن عدد المحتشدين يجاوز الألفين ... وبعد أن أسهم رجال شرطة المطار في فسح الطريق أمامي فتح باب السيارة فدلقت إلى مقعدها الأمامي واستقل أفراد أسرتي المقعد الخلفي . ثم بدأت السيارة تتحرك دون أن ألقى نظرة على سائقها فقد كان الحشد خارجها يلفتني عن كل شيء في داخلها . فلما جاوزنا مكان الحشد ووجدنا أنفسنا في

الجادة الواسعة التي تقودنا إلى المدينة خطر في بالي أن أنظر إلى الخلف فوقعت عيناى على واجهة عريضة طويلة كتب عليها عبارة كان لها وقع الصدمة الكهربائية في جسدي ..

قلت : وما هي هذه العبارة ؟

قال : إنها عبارة تقول : " المطار الدولي لمدينة واق الواق ؟"

قلت : ماذا ؟ مدينة واق الواق ؟ لا شك أنك تحرف .

قال : هذا ما ظننته بادىء الأمر .. وطلبت من السائق أن يوقف السيارة التي ابتعدت عن حشود الناس لأتأكد من سلامة نظري أو لأتبين مكاني من هذه الدنيا الجديدة . ووقفت بنا السيارة فعلاً ثم حملت في العبارة المكتوبة فإذا بها هي هي لم تتغير : المطار الدولي لمدينة واق الواق . في وسعك أن تقول عني ما تشاء . لكن ما رأيته حقيقة واقعة .. ولا أزال حتى الآن أرى بعين خيالي كل حرف من حروف هذه العبارة . قلت في نفسي : الجادة هي جادة مطار بيروت الدولي .. الجزيرة المزروعة في وسط الجادة هي هي نفسها .. والأبنية التي تتأخم الجادة على الجانبين هي هي نفسها أيضاً . لكنني أعترف في الوقت نفسه بأن القناع الشفاف الذي أحس بوجوده وأنظر إليه ولا أستطيع لمسه لا يزال أمامي في كل مكان يلف الأرض كما يلف السيارات المارة والمزروعات القائمة في كل مكان والمباني القائمة ..

- وبعد ؟

- طلبت من السائق أن يستأنف سيره .

- وأين وقف بك ؟

- عند باب بيتي في شارع ابن رشد من حي المصيطبة حيث ولدت أنا واخوتي وأخواتي .

- وهل بقي القناع الشفاف الغريب يلف كل شيء يحيط بك ؟

- بلى ... لقد بقي كما كان في كل وقت .. رأيت وأحسست به في كل زاوية من زوايا بيتي لا يفارقها أبداً .

- حديث خرافة .. هذا كله ..

- أقسم لك أنني كنت أرى كل شيء كما تركته عندما أقلعت بي الطائرة .. الأذقة والشوارع والبيوت ودكاكين

الحي والبقالات والناس .. كلهم لم يتغيروا .. كل بيروت .. لكن الجميع كان يلفهم هذا القناع الشفاف الغريب .

- وماذا فعلت بعد ذلك ؟

- لا شيء .. لقد حاولت الانصراف عن كل من حوالي .. عن الزوجة والأولاد والخادمة التي عرفت فيها ماري الطيبة التي تعمل عندي منذ سنوات .. وأخذت أنظم المشاهد التي مررت بها وأرتب الأفكار التي تعاقبت واحدة بعد الأخرى . وبدا لي كل شيء كأنه لغز كبير يحتاج إلى حل أكبر منه .

كيف يمكن للطائرة أن تهبط في مطار دولي لمدينة كل ما فيهما يدل إلى أنهما جزء من أرض لبنان ؟ حتى الناس الذين لقيتهم واللهجة التي كانوا يستخدمونها وأنا أستمع إليهم . كانوا يؤكدون لي أنني في صميم بيروت بكل ما تتفرد به من سائر المدن التي أعرفها وقد عرفت منها عدداً غير قليل ؟

هل يمكن أن يكون للسحب السوداء التي أحاطت بالطائرة وللأمطار والرياح العاصفة التي كانت تنزل الطائرة مثل أثر السحر ؟

وقد خيل إلي بعض الوقت أن مؤامرة قد حيكت خيوطها من حوالي . لكنني عدت وتساءلت : ما هو الغرض من هذه المؤامرة ؟ هل يمكن أن يتم التواطؤ على تديرها بين رجل الأمن والعبارة الكبيرة التي برزت فوق واجهة المطار ؟ ثم من أنا حتى يؤكد لي كل من حوالي أن هذه المدينة هي مدينة واق والشعب فيها هو شعب واق الواق ؟ ومن أين جاء هذا الاسم ؟ وما معناه ؟ ثم هذه المرأة التي لا تختلف عن زوجتي في كل علاماتها الفارقة حتى طريقة ابتسامتها ! وهاتان الغمازتان اللتان ترسمهما الشفتان حين تضحكان ! ولنفترض أن ظروفها لا أعلمها قد أعدت هذه المرأة لتمثيل دور الزوجة فما الذي جعل الأطفال الثلاثة يتصرفون معي بمثل هذه الصدق وتلك العفوية ؟ هذا غير ممكن .. كل شيء يدل إلى الصدق في تصرف الزوجة والأطفال الثلاثة .. وما كان في وسعي أن أشك فيهم لولا هذا القناع الشفاف الرقيق الذي أتبينه لكن لا أستطيع أن ألمسه .. لقد تحسست وجوه الزوجة والأطفال فما لمست غير وجوه طبيعية .. إذاً لا بد أن شيئاً قد حدث في داخل نفسي . وأن ما سمعته من سليم رجل الأمن وما رأيته مكتوباً على واجهة المبنى الكبير للمطار الدولي هو وهم من الأوهام ؟ لكن المشكلة أن هذا الوهم لم يزل أثره وأن كل من حوالي يؤكد لي أنني في مدينة واق الواق ! ..

ثم استأنفت تساؤلاتي : وقضية الترشيح للانتخابات ؟ وهذا الحشد من الناس الذين جاؤا لاستقبالي؟! هل يمكن أن تتواطأ وزارة الداخلية مع الناس كلهم فتعتمد ترشيحي للانتخابات دون طلب مني؟! وما هي مصلحة الوزارة في اختياري دون غيري من رجال الصحافة ؟ ولأفترض أنني في نظر المسؤولين أمثل قيمة إعلامية سياسية معينة .. هل يمكن لإنسان أن يكون مرشحاً للانتخابات على غير علم منه ؟ ولماذا حدث كل هذا التغير خلال

فترة لا تجاوز ست ساعات أو أكثر قليلاً؟ ألم يكن في وسع المسؤولين في الوزارة أن يتصلوا بي قبل سفري؟ كل هذه التساؤلات لم تكن تجد إجابات مقنعة .

وهنا قاطعت صديقي فؤاداً وقلت له : حسن كل ما سمعته منك . فما الذي جرى بعد ذلك ؟ أنك تثير اهتمامي وتحدث في نفسي توتراً متعباً لأعصابي . قل لي الآن هل أنت واع بكل كلمة تقولها ؟ ألا تحاول أن تجعل من هذيان الأحلام حقيقة واقعة ؟

وانتفض فؤاد قائلاً : أقسم لك أن كل ما أقوله لم يكن حلماً أبداً ... لقد ذهبت فعلاً إلى مطار بيروت الدولي .. وركبت الطائرة مع مسافرين آخرين .. ثم أقلعت بنا واستوت في السماء حتى إذا اقتربنا من العاصمة الآسيوية اقتحمتنا السحابات السوداء وعصفت بنا الرياح وهطلت الأمطار الغزيرة ثم تابعت بقية الوقائع كما قصصتها عليك .

قلت : حسن جداً .. يا فؤاد . تابع القصة ..

وأردف صاحبي يقول : الواقع أنني تعبت بعد أن استعرضت كل ما رأيت وسمعت ولقيت من الناس وقررت الاستسلام لكل ما جرى ويجري من حولي ما دام ان الجميع يصرون على أنني مواطن في مدينة واق الواق وأن زوجتي وأولادي ومن جاؤا يستقبلونني في المطار هم من أبناء هذه المدينة . وبعد وقت لا أذكر طوله طرق الباب وجاءت ماري تقول لي : سعيد بالباب .. قلت : ومن هو سعيد ؟ قالت : إنه صديقك رئيس لجنة الانتخابات عندك . قلت في نفسي وأنا أنهض لاستقباله : لا حول ولا قوة إلا بالله .. وإن لي لجنة انتخابية على رأسها سعيد ! وقررت مسaire الأحداث دون أي احتجاج .. ولا أخفي عليك يا صاحبي أن جهاز الانتخابات كان يعمل قبل وصولي كما علمت ثم استمر يعمل بعد عودتي يوجهني سعيد خلال ذلك ويجتمع معي صباح كل يوم ليعين لي الجهات التي يجب أن أتوجه إليها ويقدم إلي المفاتيح الانتخابية في الدائرة الثالثة التي قيل لي أنني رسخت نفسي عنها مستقلاً في مواجهة كئلتين من المرشحين تتألف كل منهما من خمسة أشخاص ..

قلت مقاطعاً : وكيف تستمر في ترشيح نفسك في دائرة كبيرة تستوعب خمسة نواب في وقت معاً ؟

قال : لست أدري .. المهم أنني قررت الاستسلام لما كنت أعتبره واقعاً مفروضاً علي . أضف إلى ذلك أنني كنت أتخذ من الحكومة موقف المعارضة الشديدة . فلم يخطر في بالي أن المغامرة التي أخوضها هي أكبر من أن تستوعبها امكاني الخاصة إن من جهة القدرة على الإنفاق أو من جهة القدرة على استقطاب العدد المطلوب من الناخبين لأوازن به قدرة كل من الكئلتين المرشحين على الاستقطاب . ولا أطيل عليك فقد حلت عشيّة

الانتخابات حين جمعني المصادفة بأحد كبار المسؤولين العقيد حافظ مسعود .. وبعد أن حياني بحفاوة بالغة قال لي وقد انفرد بي : أنصحك يا فؤاد بالانسحاب من المعركة في هذه الدورة وأعدك بمساندتك في الدورة القادمة بل أتعهد لك بالفوز فيها إن عملت بما أنصحك به ..

.....
هنا أيضاً لم أفهم شيئاً مما يجري حولي ... وبسرعة البرق استعدت كل ما جرى حتى تلك الساعة وقلت في نفسي : ما هذا اللغز الغريب ؟ كيف يفرض علي أن أشرح نفسي ثم أجدني أخوض معركة لم أرد خوضها حتى إذا لم يبق بيني وبين يوم الانتخابات غير ليلة واحدة يأتي من ينصحي بالانسحاب مقابل التعهد بمساندتي في دورة قادمة ؟ وقد عز علي أن أنسحب وأستجيب للطلب الموجه إلي لا لأنني مؤمن بالنصر بل لأنني حريص على ألا أحيب رجاء من يقفون معي بالإضافة إلى حرصي على كرامتي الشخصية .. وكان الرفض هو جوابي بعد أن حاولت تبريره أمام المسؤول الكبير .. وعندما هم بتوديعي أسرّ في أذني قائلاً : رفضك ليس من مصلحتك .. وأنت حر في اتخاذ الموقف الذي تختاره لنفسك ..

وجاء يوم الانتخاب ثم أعلنت النتيجة صباح اليوم التالي فكانت الخسارة التي توقعتها ، لكنها في الوقت نفسه كشفت عن حجمي الانتخابي الذي تجاوز حجم أقوى المرشحين في الكتلتين فيما لو خاض كل منهم معركته منفرداً . لكن تحالفهم فوّت علي فرصة النجاح .

وبينما كنت أراجع الأرقام التي فزت بها في كل صندوق من الصناديق رن جرس التليفون فلما رفعت السماعة جاءني صوت المسؤول الكبير يقول لي : اسمح لي يا فؤاد أن أهنئك على الأصوات التي فزت بها . قلت: وهل تسخر مني يا حضرة العقيد ؟ قال : أقسم لك أنني لا أسخر .. بل أنا جاد جداً .. فالأصوات التي فزت بها ما كان ليفوز بها أي مرشح من خصومك لو كان منفرداً بنفسه وانتهت المخابرة بعد أن شكرته .

قلت مقاطعاً لصاحبي فؤاد : ألم تجد حلاً لهذا اللغز ؟ وهل بقيت مقتنعاً بأنك مواطن في مدينة واق الواق ومن المرشحين لخوض معركة الانتخابات ؟

قال : هذا ما حصل فعلاً ؟ فقد وجدني بعد الانتخابات أتردد على مكثتي في الصحيفة التي أعمل بها وكأن شيئاً لم يتغير ..

ثم مضت شهور تابعت فيها حملتي على الحكومة وضاعفت نشاطي في صفوف المعارضة رغم احتفاظي باستقلالي عن كل كتلة سياسية في المدينة .

وهذا القناع الظاهر والمستعصي على اللمس هل بقي كما كان من قبل ؟

بلى ... بقي قائماً من حولي في كل إنسان وفي كل شيء .

حسن جداً .. نحن الآن في العام العاشر بعد الانتخابات التي حدثتني عنها . فلماذا لم تعاود ترشيح نفسك

في الدورة التالية ؟

لأن شيئاً حدث قبل حلولها .

وماذا حدث ؟

كان ذلك صباح يوم من أيام شهر نيسان حين رن جرس التليفون وكان المسؤول الكبير نفسه يتحدث في الطرف المقابل . وبعد التحية والسؤال عن الصحة دعاني لتناول الغداء معه وأخبرني أن مساعده الضابط سليمان نفسه ، صديقي القديم ، سيكون الطرف الثالث في تناول الطعام . وفعلاً اجتمعنا نحن الثلاثة وفي ظني أن هذه الدعوة هي نوع من المجاملة لا أكثر ولا أقل . وانتهينا من تناول الطعام حتى إذا قدمت لنا القهوة بادرتني المسؤول الكبير قائلاً :

والآن قل لي يا فؤاد ما الذي تخطط لمستقبلك ؟

قلت : لا جديد ...

قال : كيف لا جديد والدورة النيابية تقترب من النهاية ؟ فلم يبق بيننا وبينها غير عام واحد !

قلت : لا جديد لأنني لا أفكر في خوض معرك الترشيح .

قال : اسمع يا فؤاد . نحن نحترمك ... ونعرف عنك كل شيء . فأنت تملك الكفاءة لكنك لا تملك المال

الذي يساعدك على خوض المعركة . ثم التفت إلى الضابط سليم وقال له : هات المغلف الذي معك . فسارع

الضابط الى حمل مغلف صغير موضوع فوق طاولة صغيرة في ركن من الغرفة .

ثم أردف المسؤول الكبير يقول : نحن نعرف عنك كل شيء . ونعرف أن وضعك المالي مضطرب جداً . وأن

أولادك محرومون من التعليم الجيد وأنت لا تكاد توازن بين دخلك ومزجك إلا بالاقتصاد الشديد .. ولما كنت

وجهاً طيباً من وجوه واق الواق فإنه يعز علينا أن نجدك في وضعك الصعب . هذه هذا المبلغ من المال تصرف به

فاشتر لنفسك سيارة تليق بك وغير مواعين بيتك وابحث لأولادك عن مدرسة جيدة ولا تنسى أن تشتري لزوجتك ما تحتاج إليه من الثياب والزينة . واعلم أن هذا يتم ولا أحد غيرنا يعلم به غير الله ونحن الثلاثة ..

قلت وقد فوجئت بالمبادرة الغريبة : هل هذه رشوة يا حضرة الضابط ؟

قال : لا والله ... إن في وسعك أن تستمر في معارضتك فأنت في بلد حر يؤمن بحق كل مواطن في أن يقول ما يشاء ما دام أنه يعمل لوطنه ويغار على وحدته وسيادته ..

قلت : أنا لا أحاول تجاهل وضعي المادي ولا أبغي التظاهر بالغنى . لكن أتظن يا عزيزي أن في وسعي شخصياً الاحتفاظ بموقفي السلبي بعد أخذ هذا المال منك ؟ إنني إن فعلت فقدت احساسي بالكرامة وبدت لي تفاهتي بكامل أبعادها . لا يا عزيزي هذا مال لا أستطيع أخذه رغم حاجتي إليه .. فأبق عليك هذا المال ودعني وشأني ..

وبعد حوار بدا فيه عزمي على الرفض رسم ابتسامة عريضة على شفثيه وقال لي : كنت أنتظر منك هذا الرفض . فأنا أعلم أنك تطمح إلى تحقيق خطوة كبيرة . حسن جداً . نحن الآن بصدد تعديل وزاري فما رأيك في الحصول على حقيبة وزارية ؟

قلت : أنا ؟

قال : نعم أنت . وهل تظن أن الوزراء خير منك وأكثر كفاءة ؟ إنك في نظري أكبر منهم جميعاً . ثم قال كلاماً عن بعض الوزراء لا يليق بي أن أردده .

قلت : اسمع يا حضرة الضابط . أولاً أشكرك على هذه المبادرة . لكنني أخاف أن يأتي يوم تقول فيه عني في مجلس كهذا المجلس ما قلته عن بعض هؤلاء الرجال . ولما كنت لا أستطيع تصور مثل هذا الاحتمال بالنسبة لشخصي فأنا معتذر عن قبول العرض .

قال : هل تريد رأيي بعد كل الذي سمعته منك ؟

قلت : نعم . قل ولا حرج عليك .

قال : رأيي أنك أحد شخصين : إما مغفل كبير أو قديس كبير .. وهل في دنيانا اليوم قديسون !؟

قلت : ربما كنت مغفلاً كبيراً . لكن الذكاء بعيداً عن الكرامة لا يلبث أن يسقط في التفاهة والرقاعة .

قاطعت صاحبي متلهفاً وقلت له : حقاً أنت مغفل كبير ! كيف ترفض الإفادة من مثل هذه الفرصة ؟

فأجابني بعد تردد قليل : فوت الفرصة لأنني حقاً مغفل في مقاييس كثير من الناس وفي مقدمتهم المسؤول الكبير وصديقي سليم وأنت أيضا .

فأردفت قائلاً : وبعد .. ماذا حدث لك ؟

قال : ومضت أيام قضيتها في تقليب النظر في كل ما جرى خلال هذا الاجتماع . وقررت في نفسي أن أغادر مدينة واق الواق مع أول مهمة صحفية . وقد حضرت الفرصة صباح يوم من الأيام فطلبت من زوجتي إعداد حقيقتي الصغيرة وتوجهت إلى المطار ثم أقلعت بي الطائرة متجهة إلى العاصمة الآسيوية التي فشلت في الوصول إليها في المهمة السابقة .

وكيف عرفت طريقك إلى هذه العاصمة ؟

لست أدري ... المهم أن ما حدث في رحلتي السابقة تكرر في هذه الرحلة . واجهتنا سحابة سوداء امتنعت علينا فيها الرؤية وعصفت بنا الرياح وأمطرت السماء وظننا أنه قد أحيط بنا من كل جانب وأن الهلاك منا على قاب قوسين أو أدنى . حاولت أن أنام هرباً من الأخطار المحدقة بنا ونجحت في النوم لأن ربان الطائرة قد طمأننا إلى أن كل شيء على ما يرام وأن الطريق إلى العاصمة الآسيوية سالكة إن شاء الله . ثم لم أفتح عيني إلا على صوت المضيفة وهي تقول : ستهبط الطائرة بعد دقائق فوق أرض المطار . أرجو أن تشدوا أحزمتكم وأن تطفئوا سجايركم .. ونظرت عبر نافذة الطائرة فإذا السماء صافية والشمس مشرقة ومجلسي من الطائرة ثابت مستقر .

قلت لصاحبي فؤاد : وهل عدت إلى مدينة واق الواق ؟

قال : نسيت أن أخبرك بأن مفاجأة حدثت لي أثناء الرحلة لقد أدهشني أن ركاب الطائرة الذين رافقوني في الرحلة إلى العاصمة الآسيوية هم أنفسهم الركاب الذين ضلت بهم الطائرة في الرحلة السابقة وحطت بنا في مطار مدينة واق الواق وغابوا عني منذ دخلت غرفة رجل الأمن صديقي الضابط سليم . أما بشأن العودة إلى مدينة واق الواق فإن كل ما أذكره أنني في رحلة العودة بعد إتمام المهمة الصحفية وجدت نفسي في مطار بيروت الدولي .

والقناع الشفاف ؟ ماذا حدث له ؟

غاب ولم يعد يظهر لي منذ ذلك الوقت .

والناس الذين استقبلوك في الرحلة الأولى ؟

لم ألتق أحداً منهم .

والمسؤول الكبير الذي عرض عليك المال ثم الحقيبة الوزارية .

انقطعت أخباره عني .

وكيف تفسر ما حدث لك ؟

لقد كانت حقيقة واقعة .

لكن كل شيء يدل إلى أنه كان حلماً من الأحلام.

أقسم لك أنه كان حقيقة واقعة إلا اذا كانت الدنيا التي نحيا فيها الآن هي حلم كبير ..

حسن جداً .. فما الذي دفعك إلى مغادرة بيروت إلى هذا البلد وقد كنت في حال طيبة ؟

لست أدري .. ربما كانت كوابيس الذكرى التي كانت تعود بي إلى أيام تلك الرحلة الخطرة وما تعاقب بعدها

من الوقائع . كنت كلما عاودتني هذه الذكرى أحس بالغربة عمن حولي ويخامرني شعور طاغ بأني لا أزال فعلاً

في بلاد واق الواق وأن ما شهدته لم يكن حلماً من الأحلام بل حكاية واقع خالط دمي ولحمي ومشاعري كلها

.. كانت هذه المشاهد تبدو لي مجسدة في كل اتصال مرسومة على الوجوه التي التقيتها في كل مناسبة .

قلت: هذا يعني أنك فقدت القدرة على الاتصال بالواقع . أي أنك أصبحت تحت سلطان الحلم الذي حلمت

به .

فأجابني صاحبي: لكن هذا لم يكن شعوري أبداً ، إلا إذا كانت دنيانا حلماً مستمراً تفرضه طبيعة العاصمة التي

أعيش فيها . كنت في حاجة إلى الهروب من ذكريات تلك الواقعة .

فسألته: وهل وفقت إلى الهرب منها؟

فأجابني: بلى ... كيف يمكن للذكريات أن تنفصل عن صاحبها حين يغادر موطنه ؟

اسمع يا صديقي .. لقد تبين لي بالتجربة أن لكل منا أحلامه التي تلد معه وتنمو معه ثم ترافقه في كل يوم

ما دام أنه مقيم فوق ترابه الوطني . ولما كانت أحلامي قد تحولت إلى كوابيس مزعجة فقد أدركت أن هجري إلى

بلد بعيد قد تحررتني من هذه الكوابيس . وصدق حدسي ثم تأكد لي أن لكل أرض أرض أحلامها فإذا فارقها

صاحبها تخلفت هذه الأحلام عنه .

قلت: حسن جداً .. إذا كان لكل أرض أحلامها أفليس من الطبيعي أن تولد لك أحلام جديدة في أرض

الاغتراب؟

قال صاحبي: صحيح .. لكن الأحلام في أرض الاغتراب تختلف عنها في أرض الوطن لا سيما اذا تم الاغتراب في سن متقدمة ..

قلت: الحقيقة أنني لا أفهم عنك ما تقول ! ..

قال: ومن الطبيعي ألا تفهم إلا اذا وافقتني على أن الأحلام وما وراءها عن الأطماع تتشكل بالظروف القائمة والناس الذين تعاشيهم في كل أرض . الأحلام والأطماع في أرض الوطن مثلاً هي حصيلة تجربة تشترك في صنعها الأخلاق السائدة والظروف الاجتماعية والسياسية والأوضاع الثقافية والمادية قد تدعم احساسك بالقدرة على التجاوب معها أو تضعف هذا الإحساس . فإذا ضعف الإحساس بهذه القدرة عندك عليك أن تختار أحد مخرجين : السقوط في القهر مع الشعور بالإحباط إن بقيت حيث أنت أو الانتقال إلى أرض جديدة ووسط جديد تعيد فيهما النظر في حساباتك تواجه بها أحلاماً جديدة قد تكون أكثر توافقاً مع طبيعتك وتجاوباً مع مزاجك واختياراتك الفكرية والنفسية ..

فسألته: والآن هل وجدت الأحلام الجديدة هذه ؟

فأجاب: ألا ترى أن بقائي هنا كل هذه السنوات هو دليل على وجود هذه الأحلام الجديدة ؟

قلت: لكن الأحلام في أرض الوطن أكثر حميمية واتصالاً بوجدانك !

فأجاب: كلا يا عزيزي .. الإنسان في حاجة إلى الحلم ... وليس من الضروري أن يكون حلماً معيناً بالذات ... المهم أن تكون قادراً على التعايش معه وأن يكون لك من المواهب ما يصلح لتغذية هذا الحلم . فأحلام الحياة ليست صنع بيئة وحيدة وطموح وحيد وظروف وحيدة .. فنحن نصنع لحياتنا أحلامها ثم نشكل هذه الأحلام على صورة الأرض والناس والظروف التي تحيط بنا فيها .. وها أنا في هذه الأرض التي انتقلت إليها قد صنعت أحلامي التي أحقق بها ذاتي وأشعر معها بالقدرة على الموازنة بينها وبين الواقع الذي أعيشه .

ثم نهض صاحبي فؤاد مستأذناً بالخروج من مكان التقائنا .. وبينما كنت أتابعه بنظراتي وهو يتعد عني رحت أتساءل : هل صحيح أن في وسع كل منا أن يصنع أحلامه ويشكلها حيث يكون من الأرض .؟ وفجأة تردد في ذهني قوله عز وجل في محكم تنزيله من الآية 97 من سورة النساء : " إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا " وهنا أدركت حقيقة كبيرة .

أدركت أن الإنسان يظلم نفسه حقاً حين يستسلم منهزماً أمام أي واقع في أي أرض حتى ولو كانت الأرض التي ولد فوقها . وهو لا يحتفظ بكرامته وحقه في صنع الحياة التي تتجسد فيها أحلامه إلا إذا وجد في أرض الله الواسعة المكان الذي يصلح لصنع هذه الحياة على الصورة التي يحقق بها ذاته ..